

# الفصل الأول

## المقسم به

منذ عهد الصحابة ، جذبت أقسام القرآن الأنظار ، بسبب كثرتها و غرابتها  
وخروجها عن المعتاد .

وكان من أقدم ما أثار انتباههم وعجبهم الإقسام بغير الله . فقد نهي  
النبي ﷺ المسلمين عن الحلف بغيره في قوله : « من كان حالفا فليحلف بالله  
أو ليصمت<sup>(١)</sup> » .

وقد قنع جمهور المسلمين الأولين — في تصوري — بتسليم الأمر في هذه  
الأقسام إلى الله ، ذلك الموقف الذي عبر عنه عامر بن شراحيل الشعبي  
( ١٩ — ١٠٣ / ٦٤٠ — ٧٢١ ) وغيره — فيما بعد — بالقول : الخالق يقسم  
بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق<sup>(٢)</sup> .

---

(١) القرطبي ٧١ / ٦ . ابن القيم ٥٧ / ١ . الشوكاني ٣ / ١٤٠ . المنار ٧ / ٤٠ . الفراهي ٤ .  
القاضي ٨٥ . رضا ١٦٧ . إسماعيل ٣٦٦ . وانظر القطان ٣٠٣ . أمين ٢٤٠ .  
شحاتة ٢٧٣ .  
(٢) ابن كثير ٤ / ٢٦٣ .

ونسبه إلى الحسن بن يسار البصري ( ٢١ — ١١٠ / ٤٦٢ — ٧٢٨ ) معترك ١ / ٤٥١ .  
الإتقان ١٧٠ / ٢ . الشوكاني ٣ / ١٤٠ ، ٤٤٥ / ٥ . القطان ٣٠٣ . القاضي ٨٥ .  
المدخل ١ / ٥٠٤ . العمري ٢٤٦ . قمحاوي ٣ / ٢٤ . رضا ١٦٧ .  
وإلى محمد بن علي الباقر ( ٥٧ — ١١٤ / ٦٧٦ — ٧٣٢ ) وابنه جعفر ( ٨٠ — ١٤٨ /  
٦٩٩ — ٧٦٥ ) : الطوسي ٩ / ٣٧٧ ، ١٠ / ٢٥١ . الطبرسي ٢٧ / ٧ ، ٣٠ / ٢٢ . =



بعده إلا نادرا . ولما كان جميع القرآن معجزة مؤداة بالحروف ، وجد ذلك عاما في جميع المواضع ، ولا كذلك القسم بالأشياء المعدودة (١).

وكشف في الثانية أن الله أقسم بالحروف في أول ثمان وعشرين سورة ، وبالأشياء التي عددها عدد الحروف في أربع عشرة سورة ، لأن القسم بالأشياء غير الحروف وقع في أوائل السور وفي أثنائها ، والقسم بالحروف لم يوجد ولم يحسن إلا في أوائل السور ، لأن ذكر ما لا يفهم معناه في أثناء الكلام المنظوم المفهوم يخل بالفهم . ولما كان القسم بالأشياء له موضعان ، والقسم بالحروف له موضع واحد ، جعل القسم بالأشياء في أوائل السور على نصف القسم بالحروف في أوائلها (٢) .

ولما كنت قد أعطيت الحروف المقتطعة كتابا مستقلا ، فإنني أكتفي بهذه الإشارة المبصرة ، إعلاما بمكانها هنا .

## ب . ما اتصل بمحمد

### ١ . عمره

وكان من أقدم ما أثار الانتباه ، وأدى إلى اختلاف كثير ، القسم في الآية ٧٢ من سورة الحجر ، الذي ورد في أثناء سرد أخبار لوط — عليه السلام — ويقول : « لَعْمَرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » بسبب إيمان العلماء بأن القسم يدل على الإعزاز .

وكان من أول من تصدى لتفسير الآية عبد الله بن عباس ( ٣ ق . هـ . — ٦١٩ / ٦٨٧ ) الذي رأى أن هذا القسم هو بحياة النبي ﷺ وعقب على

(١) مفاتيح ٢٨ / ١٢٧ .

(٢) مفاتيح ٢٨ / ١٢٧ .

ذلك قائلا : ما خلق الله ، وما ذرأ ، وما برأ نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ .  
وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره <sup>(١)</sup> .

ولكن أبا نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري (١١٢٠/٥١٤) أعلن  
في تفسيره : يحتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط ، أى كانوا في سكرتهم  
يعمّهون . وقيل : لما وعظ لوط قومه وقال : هؤلاء بناتي ، قالت الملائكة : يالوط :  
لعمرك إنهم في سكرتهم يعمّهون . ولا يدرون ما يحل بهم صباحا <sup>(٢)</sup> .

ورجّح هذا الاحتمال لدى جبار الله محمود بن عمر الزمخشري  
(٤٦٧-٥٣٨/١٠٧٥ - ١١٤٤) ففسر به الآية . ثم أعقب هذا التفسير  
بقوله : وقيل : الخطاب لرسول الله ﷺ وإنه أقسم بحياته <sup>(٣)</sup> .

واستبعد عبد الحق بن غالب المعروف بابن عطية (٤٨١ - ٥٤٢/١٠٨٨ -  
١١٤٤) تفسير ابن عباس ، لأنه يقطع القسم مما قبله وما بعده من السياق <sup>(٤)</sup> .

(١) الطبري ٣٠/١٤ . البغوي ٣/٣٨٧ . الطبرسي ٣٧/١٤ . أبو حيان ٥/٤٦٢ . ابن كثير  
٦٠١/٢ . معترك ١/٤٥١ . الإتيقان ٢/١٧٠ . الآلوسی ١٤/٧٢ . القاضي ٨٦ .  
المدخل ١/٥٠٤ . قمحاوي ٣/٢٤ . العمري ٢٤٦ . رضا ١٦٨ . إسماعيل ٣٦٥ .  
واقصر على الشق الثاني من القول منسوباً إلى ابن عباس : ابن عطية ٨/٣٣٨ . الرازي  
١٦١/١٩ . ومنسوباً إلى أبي الجوزاء أوس بن عبد الله الربيعي (٨٣/٧٠٢) : القرطبي  
١٠/٣٩ . الشوكاني ٣/١٤٠ . وإلى الرجلين معا : أبو حيان ٥/٤٦٢ . وغير منسوب :  
الزمخشري ٢/٥٨٦ . الشوكاني ٣/١٤٠ .

ووافق على أن القسم بحياة محمد : الزركشي ٣/٤٢ . حسين ٤٥ . بدوي ١٧٠ .  
الآلوسی لعبد الحميد ٢٤٦ . شحاتة ٢٨٠ . خليف ٩٦ . إسماعيل ٣٦٤ - ٥ .  
القرطبي ١٠/٤٠ . وذكر أن القسم قد يكون بحياة لوط : الزمخشري ٢/٥٨٥ . الرازي  
١٦١/١٩ . أبو حيان ٥/٤٦٢ . الآلوسی ١٤/٧٢ .

(٢) الكشاف ٢/٥٨٥ - ٦ . الشوكاني ٣/١٤٠ .

(٤) أبو حيان ٥/٤٦٢ .

وعلى الرغم من أن القاضى أبا بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي (٤٦٨-٥٤٣ / ١٠٧٦ - ١١٤٨) قال : قال المفسرون بأجمعهم : أقسم الله هاهنا بحياة محمد ﷺ فإنه لم يمنع التفسير الآخر ، وصرح : ما الذى يمنع أن يقسم الله بحياة لوط ، ويبلغ به من التشريف ما شاء ، وكل ما يعطيه الله للوط من فضل ، يؤتى ضعفية من شرف محمد ﷺ لأنه أكرم على الله منه ؟ أو لا ترى أنه — سبحانه — أعطى إبراهيم الخليل ، وموسى التكليم ، وأعطى ذلك محمد ؟ فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع . ولا يُخرج من كلام إلى كلام لم يجز له ذكر (١) .

واستحسن محمد بن أحمد القرطبي ( ١٢٧١/١٢٧٣ ) قول ابن العربي ، لأنه رأى أن تفسير ابن عباس يجعل القسم بحياة محمد كالما معترضا فى قصة لوط (٢) .

ورفض شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسى ( ١٢١٧ - ١٢٧٠ / ١٨٠٢ - ١٨٥٤ ) ما رواه الزمخشري ، لأنه — فى رأيه ، مع مخالفته للمأثور — محتاج لتقدير القول ، أى قالت الملائكة للوط . وهو خلاف الأصل ، وإن كان سياق القصة شاهداً وقرينة عليه . فلا يرد عليه ما قاله صاحب الفرائد من أنه تقدير من غير ضرورة . ولو ارتكب مثله ، لأمكن إخراج كل نص عن معناه بتقدير شيء ، فيرتفع الوثوق بما فى النص (٣) .

وأعلن د . يوسف خليف أن القسم بالنبي ﷺ ورد فى موضع واحد ، هو سورة الحجر (٤) ، وهو ما اتفق عليه جمهور المفسرين . وانفرد الزمخشري بالقول بأنه قسم بحياة لوط .

(١) القرطبي ٣٩ / ١٠ - ٤٠ . الشوكاني ٣ / ١٤٠ .

(٢) الجامع ٤٠ / ١٠ . الشوكاني ٣ / ١٤٠ .

(٣) روح ١٤ / ٧٢ .

(٤) دراسات ٩٨ . وأتى به غير منسوب : إسماعيل ٣٦٥ .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن القسم بالرسول — ص — ورد في موضعين آخرين، في أول سورتي طه ويس ، وكتاتهما مكية . ولكن أكثر المفسرين على أن طه ويس من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور<sup>(١)</sup> .

وقد رأينا ابن عباس يعلل القسم بحياة محمد بأنه لا يوجد من هو أكرم على الله منه .

وذهب الزمخشري إلى أن الإقسام بحياة النبي كرامة له<sup>(٢)</sup> . وعده ابن عطية تشريفا<sup>(٣)</sup> ، والرازي تكريما<sup>(٤)</sup> ، والقرطبي نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف<sup>(٥)</sup> ، وابن كثير تشريفا عظيما، ومقاما رفيعا، وجاها عريضا<sup>(٦)</sup> .

وعلل الزركشى هذا القسم بتعريف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه<sup>(٧)</sup> ، وود . أحمد أحمد بدوى بتشريف حياة الرسول، وتعظيم أمره في عيون السامعين<sup>(٨)</sup> .

(١) دراسات ٩٨ .

(٢) الكشف ٥٨٦ / ٢ / الشوكاني ١٤٠ / ٣ . وأتى به دون نسبة : العمري ٢٤٦ .

(٣) الخمر ٣٣٨ / ٨ . وانظر القرطبي ٣٩ / ١٠ . ابن كثير ٦٠١ / ٢ . الشوكاني ١٤٠ / ٣ .

(٤) مفاتيح ١٦١ / ١٩ . الرازي لعبد الحميد ٢٥٣ — ٤ . وانظر أبو حيان ٤٦٢ / ٥ .

(٥) الجامع ٣٩ / ١٠ .

(٦) التفسير ٦٠١ / ٢ .

(٧) البرهان ٤٢ / ٣ . وأتى به منسوبا إلى بعض العلماء : معترك ٤٥١ / ١ . الإتيان ١٧٠ / ٢ .

جمودة ٢٣ . القاضى ٨٥ — ٦ . شحاتة ٢٨٠ . المدخل ٥٠٤ / ١ . قمحاوى ٢٤ / ٣ .

وأهمل نسبه الآلوسى لعبد الحميد ٢٤٦ .

(٨) من بلاغة ١٧٠ .

وتبين لنا هذه الجولة أن العلماء انقسموا فريقين : جمهور رأى أن القسم بحياة محمد، وأقلية رجحت أن يكون القسم بحياة لوط، وأن د. يوسف خليف لم يوفق حين صرح بأن الزمخشري انفرد بالرأى الأخير.

وتبين أن من ذهبوا إلى أن القسم بحياة محمد إنما عز عليهم أن يوهب لوط شرف الإقسام بحياته دون محمد، وأنهم تغاضوا عن سياق الآيات، بدعوى وقوع التفات فيها. وغفلوا عن أن تكريم أحد الأنبياء لا ينتقص من مكانة بقيتهم.

وتبين أن من ذهبوا هذا المذهب، أفاضوا في الحديث عما يسبغه عليه هذا القسم من شرف، وبخاصة قول الزركشى الذى أشاعه السيوطى، فرددته الكتب بعده ؛ على حين عنى أصحاب الرأى الآخر بالدفاع عنه، وكادوا يهملون التشريف.

كذلك لم يوفق د. يوسف خليف فى القول بأن أكثر المفسرين يرون أن طه ويس مجرد حروف مقطعة . ويمكن للقارئ أن يعرف المزيد عن هذه الحروف بالرجوع إلى كتابنا عنها .

والسفت الطوسي إلى القسم برب محمد في قوله تعالى : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهْمُ  
وَالشَّيَاطِينَ﴾ <sup>(١)</sup> ودلالته ، فقال : في ذلك تشريف للنبي ﷺ <sup>(٢)</sup> . وتنبه على عظم  
مزلته عنده <sup>(٣)</sup> .

وأيد الزمخشري فذكر أن في إقسام الله باسمه — تقدست أسماءه — مضافا إلى  
رسول الله ﷺ تفخيما لشأن رسول الله <sup>(٤)</sup> ، ورفعاً منه <sup>(٥)</sup> ، كما رفع من شأن  
السماء والأرض في قوله : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ <sup>(٦)</sup> .

وصرح صاحب تفسير المنار : أقسم الله بربوبيته لرسوله ، مخاطبا له في ذلك  
خطاب التكريم . ومن المعهود في اللغة أن مثل هذا القسم يعد تكريما <sup>(٧)</sup> .

- 
- (١) سورة مريم ٦٨ .  
(٢) النيان ١٤ / ٣٥٥ . وأتى به دون نسبة : الطبرسي ١٤ / ٤٥ .  
(٣) النيان ١٤ / ٣٥٥ . وأتى به دون نسبة : الطبرسي ١٤ / ٤٥ .  
(٤) الكشاف ٣ / ٣٣ . وأتى به دون نسبة : الرازي ٢١ / ٢٠٦ . الآلوسي ١٦ / ١١٨ . وانظر  
أبو حيان ٣ / ٢٨٤ .  
(٥) مثله .  
(٦) سورة الذاريات ٢٣ .  
(٧) ٥ / ٢٣٦ .

وصرح محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ( ٦٩١ - ٧٥١ / ١٢٩٢ - ١٣٥٠ ) : أمر الله نبيه أن يقسم به على الجزاء والمعاد في ثلاث آيات. فقال في الآية الثالثة والخمسين من سورة يونس : ﴿وَيَسْتَبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وفي الآية الثالثة من سبأ : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وفي الآية السابعة من التغابن : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾<sup>(١)</sup>. وأضاف عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر المعروف بابن كثير ( ٧٠١ - ٧٧٤ / ١٣٠٢ - ١٣٧٣ ) أنهن آيات ثلاث لا رابعة لهن<sup>(٢)</sup>.

### ٣ - محمد وحياته وخيله

وقال ابن العربي : أقسم الله بمحمد فقال : ﴿يَسِ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ وأقسم بحياته فقال : ﴿لَعَمْرُكَ...﴾ وأقسم بخيله وصهيلها وغبارها وقدح حوافرها النار من الحجر فقال : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا...﴾ الآيات الخمس<sup>(٣)</sup>.

### ٤ - زمانه ومكانه وعمره

وقال الرازي تعليقا على القسم في سورة العصر: أقسم تعالى بزمان ﴿عصر﴾ محمد في هذه الآية ، وبمكانه في سورة البلد ، وبعمره في قوله : ﴿لَعَمْرُكَ...﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) البيان ١/ ٥٢ ، ٦٤ . وانظر ابن كثير ٣/ ٥٤٨ ، ٤ / ٣٩٧ . إسماعيل ٥٦٤ - ٥ .

(٢) التفسير ٣ / ٥٤٨ .

(٣) القرطبي ٢٠ / ١٥٤ .

(٤) مفاتيح ٣٢ / ٨٢ .

## ج . الأشياء

### ١ . لذاتها

ومن أقدم ما تعرض له العلماء أيضا محاولة تبرير الإقسام بالأشياء، تلك المحاولة التي أثمرت لنا ثروة من الأقوال التي لا تزال تتزايد إلى اليوم .  
نقل الفضل بن الحسن الطبرسي ( ٥٤٨ / ١١٥٣ ) عن مجاهد بن جبر ( ٢١ - ١٠٤ / ٦٤٢ - ٧٢٢ ) ومحمد بن السائب الكلبي ( ١٤٦ / ٧٦٣ ) أن الله أقسم بالطور لما أودع فيه من أنواع نعمه <sup>(١)</sup> . واتفق معه شهاب الدين محمود ابن عبد الله الآلوسي ( ١٢١٧ - ١٨٠٢ / ١٢٧٠ - ١٨٥٤ ) الذي علق على القسم بالعصر قائلا: كأنه - تعالى - يذكر بالقسم به ما فيه من النعم وأضدادها، لتسيه الإنسان المستعد للخسران والسعادة <sup>(٢)</sup> . وقال طنطاوى جوهرى : أقسم بأشياء عددها ، وصنوها من نعم أبدعها، كالشمس والقمر والكواكب <sup>(٣)</sup> .  
ونقل الطبرى أن قتادة بن دعامة السدوسي ( ٦١ - ١١٨ / ٦٨٠ - ٧٣٦ ) كان يذهب إلى أن الله أقسم بها لعظم شأنها عنده <sup>(٤)</sup> .

(١) مجمع ٢٧/٢٦ . وانظر الآلوسي ٢٩٢/٣٠ . عبده ٩٨ . موسى ١٢٦ . إسماعيل ٣٧٠ .

(٢) روح ٣٠ / ٢٩٢ . وانظر موسى ١٢٦ .

(٣) التاج ٩٦ - ٧ .

(٤) جامع ٣٠ / ١٣٩ .

وجعل أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ - ٩٩٥/٤٦٠ - ١٠٦٧) العظمة مبدأ عاما فقال : القسم بالشيء تنبيه أو دليل على عظم شأنه <sup>(١)</sup>. ومن ثم علل عدة أقسام بما في المقسم به من عظم الشأن أو جلالته <sup>(٢)</sup>.

ورد الزمخشري عظمة بعض ما أقسم الله به إلى أمرين :

• دلالتُه <sup>(٣)</sup>.

• منفعتُه <sup>(٤)</sup>.

قال : أقسم بالقلم تعظيما له ، لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة، ولما فيه من المنافع والفوائد التي لا يحيط بما الوصف <sup>(٥)</sup>.

وعاد الطبرسي إلى المبدأ العام، فأعطانا صياغة أخرى له ، قال فيها : في القسم تعظيم للمقسم به <sup>(٦)</sup>.

(١) النيان ١٠ / ٢٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٩٦ . وانظر الزمخشري ٣ / ٣٣ ، ١٥٧ / ٢٩ . الطبرسي ٣٠ / ٢٢ ، ١٥١ . القرطبي ١٥ / ١٤٣ . ابن القيم ١ / ٤٥ ، ٢٢٩ . أبو حيان ٨ / ٣٨٤ . ابن كثير ٤ / ٣١٨ . النيسابوري ٣٠ / ٨٥ . معترك ١ / ٤٥٣ . الإتيقان ٢ / ١٧٠ . الشوكاني ٤ / ٥ . عبده ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ٩١ ، ٩٨ ، ٩٩ . جوهرى ٨٤ . الفراهي ٩ ، ١١ - ٢ . حسين ٤٥ . الآلوسی لعبد الحميد ٢٤٨ . شحاتة ٢٨١ . قمحاوی ٣ / ٢٦ .

(٢) النيان ٩ / ٣٧٧ ، ١٠ / ٢٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٩٦ . وانظر الرازي ٣١ / ١٠٥ - ٦ ، ١١٥ ، ٣٢ / ٨١ . ابن القيم ١ / ٥٧ ، ٨٦ - ٧ ، ٨٩ . الشوكاني ٥ / ٢٦٥ . الآلوسی ٣٠ / ١١٠ .

١٢١ . موسى ١٢٥ . المدخل ١ / ٥٠٥ . رضا ١٦٧ . إسماعيل ٣٧٠ .

(٣) الكشف ٣ / ٥٦٧ ، ٤ / ٥٨٤ . وانظر الطبرسي ٢٣ / ٤٨ . رضا ١٦٧ .

(٤) الكشف ٤ / ٥٨٤ . وانظر الآلوسی لعبد الحميد ٢٤٧ .

(٥) الكشف ٤ / ٥٨٤ .

(٦) جمع ٢٣ / ٤٨ . وانظر الآلوسی لعبد الحميد ٢٤٨ .

وتعدى ذلك إلى الربط بين العظمة والاعتبار ، فقال : يقسم مخلقه للتبنيه على موضع العبرة فيه، لأن القسم يدل على عظم شأن المقسم به (١) .

وعلل بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى (٧٤٥-٧٩٤/١٣٤٤-١٣٩٢) الاقسام بما بأن العرب كانت تعظمها وتقسم بها، فقول القرآن على ما يعرفون (٢) .

وأتى جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩-٩١١/١٤٤٥-١٥٠٥) بصيغة ثالثة للمبدأ العام ، قصر فيها المقسم به على المعظمت، فقال : لا يكون القسم إلا باسم معظم (٣) .

وجاء د. عبد الله محمود شحاتة بقول مطلق صرح فيه بأن العلماء والمفسرين ذهبوا إلى أن الله أقسم بمخلوقاته لبيان نواحي العظمة فيها وجلال قدرها (٤) .  
ونقل د. فؤاد على رضا قولين بينهما شيء من البعد . قال في أوھما :  
إن الله — عندما يقسم بمخلوقاته — فإنما يقصد بقسمه رفعة شأنها ومكانتها، وإعلاء قدرها وقدر خلقها على النحو الذي هي عليه، للدلالة بما على مطلق قدرته (٥) .

وصرح في الثاني بأن القرآن أبان أن عظمة هذه المخلوقات ليست فيها بذاتها، ولا بما حوته ، وإنما بمن صنعها وألزمها ناموسه [ قانونه ] لا تخرج عنه (٦) .

(١) مجمع

(٢) البرهان ٤١ / ٣ . وأتى به غير منسوب : معترك ٤٥١ / ١ . الإتيان ١٧٠ / ٢ . رضا ١٦٧ .

(٣) معترك ٤٥٠ / ١ . الإتيان ١٧٠ / ٢ . القاضى ٨٤ . والنظر جوهرى ٨٤ . أمين ٢٣٩ .

(٤) علوم ٢٨١ .

(٥) من علوم ١٦٧ .

(٦) نفسه .

ويتصل بالتعظيم كلمات أخرى ، قد يعبر بها عنه ، تتبعها فيما يلي :  
نقل القرطبي عن محمد بن السائب الكلبي ( ١٤٦ / ٧٦٣ ) أن الله أقسم بما  
لشرفها وفضلها<sup>(١)</sup> .

وذكر الزمخشري أن المراد بالأقسام في سورة التين : الإبانة عن شرفها<sup>(٢)</sup> .  
وخشى الرازي ألا يظهر شرف بعض هذه الأشياء ، فقال ذات مرة : اعلم أن  
الإشكال هو أن التين والزيتون ليسا من الأمور الشريفة ، فكيف يليق أن يقسم الله  
بهما ؟ وأطال في الجواب في إبانة خواص هذه الثمار والمواضع إلى أن خلاص إلى أن  
المراد من القسم — في الحقيقة — تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم<sup>(٣)</sup> .  
وجعل القرطبي الأمر مبداً عاماً ، فصرح : إذا أقسم الرب بشيء أثبت له  
شرفاً<sup>(٤)</sup> .

وروى القرطبي عن الكلبي أن الله أقسم بما لفضلها<sup>(٥)</sup> . وذكر أبو القاسم  
عبد الكريم بن هوازن القشيري في " كثر اليواقيت " : القسم بالشيء لا يخرج عن  
وجهتين :

- 
- (١) الجامع ١ / ١٥٦ .  
وانظر الزمخشري ٤ / ٧٤٤ . الرازي ٢٨ / ١٦٦ — ٧ ، ٣١ / ١٤٨ ، ١٧٦ . القرطبي ١٧ /  
٣٠ ، ٢٠ / ٨١ . أبو حيان ٨ / ٣٧٨ ، ٤٤٧ . ابن القيم ١ / ٢٢٩ . النيسابوري ٣٠ / ٨٣ ،  
٨٥ ، ١٥٩ . الشوكاني ٤ / ٤٠٥ ، ٥ / ٩٤ . جوهرى ٩٧ . الفراهي ٩ .  
(٢) الكشف ٤ / ٤٧٧ .  
(٣) مفاتيح ٣٢ / ٩ . الفراهي ٩ .  
(٤) الجامع ١٧ / ٣٠ .  
(٥) الجامع ١ / ١٥٦ . الآلوسی ٣٠ / ٢٩١ .  
وانظر الزمخشري ٤ / ٧٩٣ . الطبرسي ٣٠ / ١٧٨ . ابن الجوزي ٩ / ١٦٩ . الرازي  
٣١ / ١٤٨ ، ١٦٣ ، ١٨٩ ، ٦١ / ٣٢ . القرطبي ١٧ / ٢٢٣ . أبو حيان ٨ / ٥٠٩ .

إما لفضيلته كقوله : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ \* وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ (١) .  
أو لمنفعة كقوله : ﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴾ (٢) .

وجعل القرطبي القسم تبيها على الفضل (٣) . وأتى محمد بن علي الشوكاني  
(١١٧٣-١٢٥٠ / ١٧٦٠ - ١٨٣٤) بالأمر في صورة قاعدة عامة ، فقال :  
ما من شيء أقسم الله به إلا وفي ذلك دلالة على فضله على جنسه (٤) .  
وعلل الطوسي الإقسام بهذه الأشياء مرة بعظم النفع أو الفائدة فيها (٥) ،  
وهداية النفوس إلى تدبير مصالحها (٦) ؛ وأخرى بالتنبيه على كثرة الانتفاع بها (٧) .

---

= ابن القيم ٨٧/١ . الزركشي ٤٢/٣ . معترك ٤٥٢/١ . الإتيان ١٧٠/٢ . الشوكاني  
٢٦٥/٥ . الألوسي ٢٦/٢٧ . حسين ٤٦ .

(١) سورة التين ٢ ، ٣ .

(٢) سورة التين ١ . الزركشي ٤٢/٣ . معترك ٤٥١/١ - ٢ . الإتيان ١٧٠/٢ .

(٣) الجامع ١٧ / ٢٢٣ .

(٤) فتح ١٤٠/٣ .

(٥) التبيان ٩ / ٣٧٧ ، ٥٠٦ ، ٣٥٦/١٠ .

وانظر الطبرسي ٧/٢٧ ، ٢٦ ، ٢٢/٢٩ ، ١٥١/٣٠ ، ١٧٨ . ابن الجوزي ١٢٦/٩ .

الرازي ١٤٧/٣١ ، ١٧١ ، ٦١/٣٢ . الزركشي ٤٢/٣ . معترك ٤٥١/١ - ٢ .

الإتيان ١٧٠/٢ . النيسابوري ٨٣/٣ . جوهرى ٩٦ . إسماعيل ٣٦٤ .

(٦) التبيان ٩ / ٣٧٧ .

وانظر الرازي ٣١ / ١٧٢ .

(٧) التبيان ١٠ / ٣٥٦ .

وانظر الطبرسي ٧/٢٧ ، ٢٦ ، ١٥١/٣٠ ، ١٧٨ . ابن الجوزي ١٢٦/٩ .

عبده ١٤ ، ٥٩ ، ٩٩ ، ١٢٣ .

وسبق أن رأينا القشيري والزحشري يجعلان مجرد المنفعة أحد عتق الإقسام  
بها<sup>(١)</sup> .

وقال الرازى : اعلم أنه — تعالى — ينه عباده دائما بأن يذكر فى القسم  
أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة ، حتى يتأمل المكلف فيها ، ويشكر  
عليها<sup>(٢)</sup> .

وعللها أكثر من مرة بما فيها من منافع الدنيا والدين<sup>(٣)</sup> . ثم شرح هذه المنافع  
ووضعها فى قاعدة عامة ، نصها : اعلم أن هذه الأشياء التى أقسم الله بها لا بد أن  
يكون فيها إما فائدة دينية مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد، أو فائدة دنيوية  
توجب بعثا على الشكر أو مجموعهما<sup>(٤)</sup> .

وذهب القرطبى إلى أن القسم بهذه الأشياء تكربة لها<sup>(٥)</sup> .  
وأتى د . محمد محمد أبو شهبة بالأمر فى صورة قاعدة عامة ، فقال : قد يكون  
القسم لمزئلته وإظهار كرامته عند الله<sup>(٦)</sup> .

وقال ابن القيم : قال جماعة من المفسرين : أقسم الله بالتين والزيتون لمكان  
العزة فيهما<sup>(٧)</sup> .

(١) الزركشى ٤٢/٣ . معترك ٤٥١/١ — ٢ . الإتيان ١٧٠/٩ . وانظر عبده ١٣ ، ١٠٠ .

(٢) مفاتيح ١٧١/٣١ . الفرامى ٨ ، ٤٣ .

(٣) مفاتيح ١٤٧/٣١ ، ٦١/٣٢ .

وانظر النيسابورى ٨٣/٣٠ .

(٤) مفاتيح ١٤٧/٣١ .

(٥) الجامع ٨١/٢٠ . وانظر الشوكانى ٩٤/٥ . أبو شهبة ٢٤٨ .

(٦) المدخل ٢٤٨ .

(٧) التبيان ١١١/١ . أمين ٢٤١ . وانظر جوهرى ٩٧ .

وقال طنطاوى جوهرى : أقسم الله بهذه الأشياء إذ رأى نوع الإنسان يقسم بما عز عليه (١) .

وخرج عن هذا المجرى العام اثنان ، دافع كل منهما عن رأيه دفاعا مستفيضا ، وهما المعلم عبد الحميد الفراهى والدكتورة عائشة عبد الرحمن .

أما الفراهى فقد جاهر فى مقدمة كتابه بأنه ألفه من أجل ثلاثة مقاصد، كان الأول منها إبطال الظن بأن القسم مشتمل على تعظيم المقسم به لا محالة ، ذلك الظن الباطل الذى صار حجبا على فهم أقسام القرآن، ومنشأ للشبهات (٢) .

فأصل القسم — عنده — ليس فى شىء من التعظيم (٣) . واستدل على ذلك

بما يلى :

- القسم لا يلزمه المقسم به فضلا عن تعظيمه (٤) .
- للقسم كلمات ليست فى شىء من تعظيم المقسم به (٥) .
- ربما أقسم القرآن بما ليس فيه شرف ، وما ليس من الجلالة بحيث يقسم بما خالفها، إن كان الإقسام بما لأجل شرفها (٦) .
- التعظيم من عوارض القسم (٧) .

---

(١) التتاج ٩٧ .

(٢) إمعان ١٢ — ٤ ، ٢١ ، ١٢٨ — ٩ .

(٣) إمعان ١٣ ، ٢١ .

(٤) إمعان ٢٠ ، ٢١ .

(٥) إمعان ٢١ .

(٦) إمعان ٥ ، ٦ .

(٧) إمعان ٢٣ .

وكشف عن السبب فيما وصفه بالظن الباطل، فقال : وإذ كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات، كثر القسم بها . ولذلك ظن من قل التفاته إلى أساليب الكلام وقتون بلاغته أن الإشهاد لا يكون إلا بالمعبود ، وعلى جهة التعظيم<sup>(١)</sup> .

وخلص إلى أن القسم نوعان متباينان :

• أقسام بصفات الله .

• وأقسام بالمخلوقات .

ولا يراد التعظيم من القسم إلا إذا كان بالله وشعائره . أما القسم بالمخلوقات فليس إلا لكونها آيات دالة<sup>(٢)</sup> .

كما خلس إلى أن في أسلوب القسم خصوصية تشبه ما في بعض الأساليب الأخرى، كما نرى — مثلا — تأكيد الإثبات والإنكار بأسلوب الاستفهام أو التعجب ، في أكثر الألسنة ، أو تأكيد التعجب بالنداء<sup>(٣)</sup> .

وأعتقد أنه وقف هذا الموقف ، لأنه خلط بين التعظيم والتقديس والعبادة . نستنبط ذلك من قوله : المقسم به في هذه الأقسام — وإن كان عند المتكلم كريما ومضنونا به — لكنه لا يكون مما يعبده ويقده ، وأمثال هذا القول<sup>(٤)</sup> .

(١) إمعان ٣٣ . أمين ٢٤١ .

(٢) إمعان ١٣ ، ٢١ وانظر الرازي لعبد الحميد ٢٥٤ .

(٣) إمعان ٢٥ ، ٣٣ .

(٤) إمعان ٢٥ ، ٣٣ .

وأما الدكتورة عائشة عبد الرحمن فقد أعلنت أن جمهرة المفسرين اتجهوا بالأقسام إلى تعظيم المقسم به ثم مضوا يلتمسون وجه هذه العظمة . وأكثر ما ذكروه يدخل في الحكمة ، وهي تختلف تماما عن العظمة . فما من شيء في الكون خلق عبثا . وكل ما خلقه الله ، خلقه لحكمة ظاهرة لنا أو خفية علينا . أما العظمة فلا يهون القول بما مجرد لمح وجه لظاهر الحكمة في المقسم به . ثم إنهم لم يراعوا القيد في المقسم به . واضطربوا كذلك في ربط المقسم بهذه الواو بجواب قسمه . فأين الصلة بين عظمة العاديات ضبحا ، وبين كنود الإنسان لربه ، وبعبثة ما في القبور ؟<sup>(١)</sup> .

وأخيرا خلصت إلى ما يشبه ما خلص إليه الفراهي . فقد صرحت : الذي اطمأنت إليه — بعد طول التدبير للسياق — هو أن الواو في هذا الأسلوب قد خرجت عن أصل معناها اللغوي الأول في المقسم للتعظيم ، إلى معنى بلاغي<sup>(٢)</sup> .

(١) الإعجاز ٤٢٦ — ٧ .

(٢) الإعجاز ٢٣٠ ، ٢٣٤ .

## ٢ . دلالاتهما

وروى أبو حيان عن قتادة قولاً ثانياً ، صرح فيه بأنه — سبحانه — أقسم بالعصر — كما أقسم بالضحى — لما فيهما من دلائل القدرة<sup>(١)</sup> .

ووجهه من استحسان أبو عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه ( ٩٨٠ / ٣٧٠ ) قوله الدلالة إلى وجود الله ، حين قال : أقسم بمصوغاته لأنها تدل على باري صانع<sup>(٢)</sup> .

ووجهها الطوسي إلى عظمة الله ، فقال : إنما جاز أن يقسم بهذه الأشياء لأنها تنبئ عن تعظيمه بما فيها من القدرة الدالة على ربها<sup>(٣)</sup> .

(١) البحر ٥٠٩/٨ . الآلوسى ٢٩٢ / ٣٠ . وأنى به غير منسوب : الزمخشري ٧٩٤ / ٤ .  
الرازي ١٦٧ / ٢٨ . ٨١ / ٣٢ . وانظر الطبرسي ٧ / ٢٧ . ابن الجوزي ٢٨ / ٨ .  
أبو حيان ٣٧٨ / ٨ ، ٤٥٤ . ابن القيم ٧٠ / ١ . ابن كثير ٢٥٥ / ٤ . عبده ٣٤ .  
بدوى ١٧١ — ٢ . الغمراوي ٢٣٣ . الكرداني ٣١ . دفتردار ٢٨٢ . المدخل ٥٠١ / ١ .  
رضا ١٦٧ . السامرائي ٥٦ . إسماعيل ٣٦٦ .

(٢) الزركشي ٤٢ / ٣ . وانظر ابن أبي الإصبع ١١١ . ابن القيم ٤٥ / ١ ، ٧٠ . معتك ٤٥١ / ١ ،  
٤٥٣ . الإتقان ١٧٠ / ٢ . الفراهي ١٠ ، ١٢ . موسى ١٢٥ — ٦ . بدوى ١٧٠ .  
القطان ٣٠٢ . الآلوسى لعبد الحميد ٢٤٦ . أبو شهبة ٢٤٧ . أمين ٢٤٠ — ١ .  
القاضي ٨٥ . الغمراوي ٢٣٣ . شحاتة ٢٧٩ . المدخل ٥٠٣ / ١ .  
قمحاوي ٢٤ / ٣ — ١٠٦ . العمري ٢٤٦ . رضا ١٦٧ .

(٣) البيان ٤٤١ / ٨ . وانظر بدوى ١٧٢ . موسى ١٢٥ — ٦ . أمين ٢٤٣ . الغمراوي ٢٣٣ .  
المدخل ٥٠١ / ١ . السامرائي ٥٦ .

وصرح الطبرسي مرة بأنه إنما جاز أن يقسم الله بها لما فيها من الدلالة على توحيده<sup>(١)</sup>، وصفاته العُلى<sup>(٢)</sup>؛ ومرة لما تتضمنه من بدائع صنعه<sup>(٣)</sup>.

وأتى الرازي بقاعدة عامة قال فيها: الأيمان التي حلف الله بها كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان. مثاله قول القائل للمنعم عليه: وحق نعمك الكثيرة، إني لا أزال أشكرك. فيذكر النعم — وهي سبب مفيد لدوام الشكر — ويسلك مسلك القسم.

وتوهم من قد يسأل: فلم أخرجها مخرج الأيمان؟

وأجاب: لأن المتكلم — إذا شرع في أول كلامه بحلف، يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم، فيصغى إليه أكثر من أن يصغى إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر، فبدأ بالحلف، وأدرج الدليل في صورة اليمين، حتى أقبل القوم على سماعه. فخرج لهم البرهان البين، والتبيان المتين، في صورة اليمين<sup>(٤)</sup>.

وصاغ عبد العظيم بن عبد الواحد المعروف بابن أبي الإصبع (٥٩٥ — ١١٩٨/٦٥٤) القول الذي استحسنته ابن خالويه في عبارة شاعت في الكتب بعده، قال: القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل<sup>(٥)</sup>.

(١) مجمع ٢٣ / ٤٨، ٧ / ٢٧. وانظر الرازي ٣١ / ١٤٧، ١٥٠. ابن القيم ١ / ٧٠، ٧٧.

(٢) مجمع ٢٣ / ٤٨. وانظر ابن القيم ١ / ٤٥. دفتر دار ٢٨٢.

(٣) مجمع ٢٧ / ٧. وانظر ابن الجوزي ٢٨ / ٨. عبده ١٤، ٣٤. أبو شهبة ٢٤٧.

(٤) مفاتيح ٢٨ / ١٦٧ — الفراهي ٨.

(٥) الخواطر ١١١. معترك ١ / ٤٥١، ٤٥٣. الإتيقان ٢ / ١٧٠. شحانات ٢٧٩.

قمحاوي ٣ / ٢٤ — ٦. وانظر ابن القيم ١ / ٤٥. الفراهي ١٠ / ١٢. القطان ٣٠٢.

الآلوسي لعبد الحميد. القاضي ٨٥. أمين ٢٤٠ — ١. العمري ٢٤٦. رضا ١٦٧.

ورد الطوسى أيضا الإقسام بما إلى ما فيها من العبرة <sup>(١)</sup> ، أو للتبيه على موضع العبرة فيها <sup>(٢)</sup> ، أو لتعظيم ما فيها من العبرة <sup>(٣)</sup> ، والطبرى إلى أن فيها أعظم عبرة <sup>(٤)</sup> ، وأبو حيان إلى التعريض للاعتبار بما <sup>(٥)</sup> .

وأعلن الزمخشرى أن الله أقسم بالتين والزيتون لأنهما عجيبان من بين أصناف الأشجار المثمرة <sup>(٦)</sup> .

وقال الطبرى : أقسم بالقمر لما فيه من الآيات العجبية فى طلوعه وغروبه ومسيره وزيادته ونقصانه <sup>(٧)</sup> .

وذهب الرازى إلى أن الله أقسم بما لما فيها من حالة عجبية، وأسرار عظيمة باهرة ، أو لما فيها من عجب الصنعة، أو لما فيها من الآثار العجبية <sup>(٨)</sup> .

---

(١) النبيان ٣٧٧/٩ ، ٥٠٦ ، ١٠ / ٢٥١ ، ٣٤١ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ . وانظر الطبرى ٢٢/٣٠ ، ١٧٨ ، ٢٢٦ . أبو حيان ٤٤٧/٨ . إسماعيل ٣٦٣ - ٤ .

(٢) النبيان ١٠ / ٢٥١ ، ٣٤١ ، ٣٦٢ . وانظر الطبرى ٢٢ / ٣٠ . عبده ١٣ . الغمراوى ٢٣٣ . الكردانى ٣١ . إسماعيل ٣٦٣ ، ٣٧٠ .

(٣) النبيان ٣٧٧/٩ . وانظر الطبرى ٣٠ / ١٧٨ .

(٤) مجمع ٣٠ / ١٧٨ .

(٥) البحر ٨ / ٤٤٧ .

(٦) الكشاف ٤ / ٧٧٣ ، ٧٩٤ . وانظر الطبرى ١١٦/٢٩ . الرازى ٣١ / ٦٦ ، ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٥٠ . أبو حيان ٣٧٨/٨ .

(٧) مجمع ١١٦ / ٢٩ . وانظر الرازى ٣١ / ١١٥ .

(٨) مفاتيح ٣١ / ٦٦ ، ١٠٤ ، ١٥٠ .

وجعل أبو حيان القسم كما تنبينا على ما يظهر بما وفيها من عجائب الله<sup>(١)</sup> .  
ورأى د . محمد محمد أبوشهبة أن القسم بهذه الأشياء تنبيه إلى ما تنطوي عليه  
من أسرار وعجائب نعم وآلاء . فيؤدى النظر فيها إلى الإيمان بخالقها وموجدتها،  
والإذعان لما جاء به الرسول<sup>(٢)</sup> .

ويتصل بالعجائب والأسرار الدعوة إلى التأمل . ذكر الرازى أن الهدف أن  
يتأمل المكلف فيها ، لأن الذى يقسم الله به يحصل له وقع فى القلب، فتكون  
الدواعى إلى تأمله أقوى<sup>(٣)</sup> .

وقال د . محمد أحمد الغمراوى : إذا أقسم الله فى كتابه بالليل والصبح  
والضحى والنهار، أفلا يكون فى هذا أكبر داع لهم أن يتأملوها، ويتساءلوا: ماذا  
أودع الله فيها من مجالى حكمته ، ومظاهر عظمته وقدرته ، حتى استحقت أن يقسم  
لعباده بها، وهو خالقهم وخالقها<sup>(٤)</sup> ؟

وقال د . محمد بكر إسماعيل : فى طيات القسم مجالات رحبة للتأمل والنظر،  
ولطائف خفية يكتشفها المؤمن بنور بصيرته . فيزداد بها يقينا، يسمو به إلى مراتب  
العارفين برهم<sup>(٥)</sup> .

(١) البحر ٣٧٨ / ٨ .

(٢) المدخل ٢٤٧ .

(٣) مفاتيح ١٧١ / ٣١ . وانظر جمودة ٢٣ . طنطاوى ٩٦ - ٨ . بدوى ١٧٠ . الغمراوى

٢٣٣ . الكردانى ٣١ . دفتر دار ٢٨٢ - ٣ . إسماعيل ٣٦٣ : ٣٧٠ .

(٤) الإسلام ٢٣٣ . الكردانى ٣١ .

(٥) دراسات ٣٦٣ ، ٣٧٠ .

وقال أبو حيان : أقسم الله بالطارق لما علم فيه من لطيف الحكمة، وتبنيها على ذلك<sup>(١)</sup> .

وأضاف ابن القيم أن الله أقسم بصنعه لدلالاتها على كمال علمه وحكمته<sup>(٢)</sup> .  
وخشى جماعة من العلماء أن تعلق بالأقسام بعض الأوهام ، فبادروا إلى إنكارها.

قال محمد عبده ما خلاصته في تفسير التين والزيتون : قد يرجح أنهما النوعان من الشجر. ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا، بل لما يذكران به من الحوادث العظيمة التي لها الآثار الباقية في أحوال البشر. قال صاحب هذا القول: إن الله أراد أن يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسانية الطويل، من أول نشأته إلى يوم بعثه النبي ﷺ فالتين إشارة إلى عهد الإنسان الأول ، فإنه كان يستظل في تلك الجنة التي كان فيها بورك التين .

والزيتون إشارة إلى عهد نوح ، فقد أرسل بعض الطيور ، لعله يأتي بخبر انكشاف الماء عن الأرض، فغاب ولم يأت بخبر. ثم أرسل آخر، فجاء إليه يحمل ورقة من الزيتون. فاستبشر وسر، وعرف أن غضب الله قد سكن، وقد أذن للأرض أن تعمر.

وطور سنين إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية، وظهور نور التوحيد في العالم ، بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية .

ثم لما طال الأمد على البشرية حتى كادت أن تطمس معالم التوحيد والحق والشرائع، من الله على البشر ببداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ، ويفصل بين

(١) البحر ٨ / ٤٥٤ . وانظر عبده ٥٩ ، ٩٩ . العمراوى ٢٣٣ . الكرداني ٢٢ .

(٢) التيسان ٧٠ / ١ .

ما سبق من أطوار الإنسانية وبين ما يلحق ، وهو عهد ظهور النور الحمدي من مكة المكرمة. وإليه الإشارة بذكر البلد الأمين<sup>(١)</sup>.

وقال طنطاوى جوهرى : لم يكن إقسام الله بهذه الأشياء لخوفه منها . فإنه الخالق، لن يهاب ما خلق ، ولن يحتاج لما ذرأ وأبدع .  
ولم يُرد أن يعبدوها ، إذ لا إله إلا الله .

ولم يكن ذلك لتحريضهم على الحصول عليها وحوزها، فذلك مستحيل<sup>(٢)</sup> .  
وافتح عبد الحميد الفراهى كتابه بإعلان أن المقصد الثانى منه إبانة أن أقسام القرآن بالمخلوقات ليست إلا آيات دالة<sup>(٣)</sup> ، وأنه يعد ذلك أحسن الأقوال<sup>(٤)</sup> .  
وفى أثناء الكتاب أعلن أنه لم يطمئن لهذا الرأى إلا بعد أن تأمل فى جميع أقسام القرآن، ولم يدله عليه إلا القرآن نفسه من وجوه عدة<sup>(٥)</sup> .

وتوهم أن يعارضه معارض قائلا : هب أن أصل القسم هو الإشهاد ، ولكنه لكثرة استعماله للتعظيم صار كالمنقول، وصار أصله كالمذهول عنه، فلا يصار إلى الأصل إلا بدليل واضح بين .

وأجاب : سلمنا ولكننا لم نذهب إلى هذا المعنى الخاص لأقسام القرآن إلا بدلالة القرآن من وجوه كثيرة ، دونك يائها :

(١) تفسير جزء عم ١٢٣ . موسى ١٢٦ . أبو شهبة ٢٤٧ - ٨ . وانظر جوهرى ٩٧ .

(٢) التاج ٩٧ .

(٣) إمعان ١٣ .

(٤) نفسه .

(٥) إمعان ٤٦ .

الأول : سنة القرآن في استعمال بعض الكلمات مرة لله وأخرى للعبد .  
وحيثما يميز بين وجوهها حتى لا يكون مخالفا لجلالة ربنا ، مثل كلمة الصلاة : فإنها  
الرحمة من الله ، والدعاء من العبد .

الثاني : حمل النظر ، وتفسير الآيات ببعض . فإنك ترى القرآن يذكر الأمور  
الدالة تارة على أسلوب القسم بها ، وأخرى على أسلوب الآية والعبرة ، وكلها  
إشهاد لمن يتفكر فيها <sup>(١)</sup> .

الثالث : دلالة المقسم به نفسه . فالعقل لا يتوهم أن الله يضع مخلوقاته  
موضع المعبود المقدس <sup>(٢)</sup> .

الرابع : المناسبة الظاهرة بين المقسم به والمقسم عليه . فإن القرآن وضع أكثر  
هذه الأقسام بحيث لا تخفى على العاقل جهة دلالتها على ما أقسم عليه .

الخامس : تعميم المقسم به على طريق تعميم الآيات الدالة ، كما  
قال : ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ \* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ <sup>(٣)</sup> فلم يترك شيئا إلا وقد أقسم  
به ، كما قال : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ <sup>(٤)</sup> فلم يترك شيئا إلا وقد أنطقه  
بحمده وأشهده بمجده . ويشبه هذا التعميم استعمال المتقابلين ، حيث أقسم بالليل  
والنهار ، والأرض والسماء . فكيف يظن أن الله عظم كل شيء . والسبيل إلى جعله  
آية دالة ظاهرة ، فلا يصار إلا إليه <sup>(٥)</sup> ؟ .

(١) إمعان ٤١ - ٢ .

(٢) إمعان ٤٢ . أمين ٢٤٣ .

(٣) سورة الحاقة ٣٨ - ٩ .

(٤) سورة الإسراء ٤٤ .

(٥) إمعان ٤٣ .

السادس : ما يتبع المقسم به من التنبيه على كون المقسم به دليلاً للعقلاء كما قال : ﴿ وَالْفَجْرِ \* وَلَيَالٍ عَشْرٍ \* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ \* وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ \* هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ <sup>(١)</sup> فهذه الجملة الأخيرة مثل ما تجد كثيراً في القرآن بعد ذكر الدلائل ، كما جاء في الآية ٦٧ من سورة النحل : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup>.

السابع : ذكر المقسم به على صفة خاصة تشير إلى جهة الاستدلال ، كقوله : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ <sup>(٣)</sup> .

الثامن : ما يسبق المقسم به من صريح ذكر الآيات الدالة ثم التعبير عن المقسم به على وجه يشير إلى تلك الآيات ، كأنه مهد — من قبل — لما أريد من وجه الاستدلال . ومثل لذلك بسورة الذاريات <sup>(٤)</sup> .

ثم تساءل فقال : فإن سأل سائل : كيف خفي الصواب على العلماء أم كيف يطمئن القلب بهذا القول المبتدع ؟ وأجاب بما يلي :

هذا المعنى للمقسم ليس ببدع . بيد أنه خفي عليهم بعض وجوهه ومعانيه ، فلم يتمسكوا به كل التمسك : فإما تركوه في بعض المواضع ، وإما خلطوا به معنى آخر .

ولنذكر هنا بعض أسباب الخفاء ليظهر عذرهم :

(١) سورة الفجر ١ — ٥ .

(٢) إمعان ٤٣ . أمين ٢٤٣ .

(٣) سورة النجم ١ .

(٤) إمعان ٤١ — ٤ .

الأول : كون المقسم به — في بعض المواقع — نفسه شريفاً، مثل القرآن والطور ومكة، فلم يحتاجوا إلى جعل الأقسام به استدلالاً، وظنوا أن القسم بالشريف العظيم عام شائع. وإذا وجدوا المقسم به ذا احتمالات، أخذوا منها ما يشبه بالشرف .

الثاني : كون الحكماء نُجعتهم الأمور الكلية . فلا يعجبهم رأى ينخرم بعض جوانبه . ووجه الدلالة في بعض الأقسام كان خفياً. فلما لم يتبين لهم، زعموا أن هذه الكلية لا تصح هاهنا. وبخاصة أن ليس من دأب أكثرهم الإقرار بالعجز وتحويل العلم إلى الله .

الثالث : لما وجد الأولون القسم بالله وشعائره شائعاً، غلب على ظنهم أن ذلك هو الأصل. فإذا وجدوا القسم بغيره، جعلوه مجازاً . ثم رأوا أن المجاز لا يصار إليه إلا إذا تعذرت الحقيقة. ولكن محض الكثرة ليس دليل الأصالة، ولا المصير إلى المجاز مشروطاً بتعذر الحقيقة. بل الصواب أن تأخذ من المعاني ما هو أحسن وأحرى وأشبه بالسياق، وماله نظائر في باقى السياق. فلما جعلوا الفرع أصلاً، خفى عليهم حقيقة معنى القسم بالشىء.

الرابع : شهرة بعض أمور — ذات وجوه — على وجه خاص . فمهما كانت المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه منوطة ببعض هذه الوجوه، خفى وجه الاستدلال على من خفى عليه ذلك الوجه .

الخامس : انشغال علمائنا بالعلوم العقلية والنقلية المشهورة عن علوم أكبر منها نفعاً في التفسير، أعنى علم لسان أوحى به إلينا وإلى من قبلنا وتاريخ هذه الأمم السامية وعلومهم وآدابهم<sup>(١)</sup> .

(١) إمعان ٤٥ — ٧ .

ووقف الفراهي أمام السؤال الذي وقف أمامه الرازي وأجاب عنه قارئة  
قائلا : لعلك تقول: إن كانت هذه الأقسام دلائل لا غير ، فلمَ لم تذكر على  
أسلوب الاحتجاج الصريح ؟ .

وكان جوابه : اعلم أن الاستدلال — إذا كان على أمور لا تتعلق بها  
[ العواطف من ] الرغبة والتفرة ، مثل ما ترى في العلوم الطبيعية والرياضية أو في  
تاريخ الأولين على الأكثر — كان ذكر الأدلة فيها أولى بالتصريح .

أما إذا استدللنا على أمور نفسانية، يتصادم فيها من القائل والسامع حث  
واستتكار، وزجر واستكبار، وإلحاح وإصرار، احتجنا إلى إيراد الأدلة على وجوه  
مختلفة من أساليب الكلام، متفاوتة في الوضاحة واللطافة، والقوة والحدة .

وربما تبدل الأسلوب لمحض اجتناب ملال السامع أو رجاء أن ينجح فيه بعض  
الأساليب أكثر من بعض، كما صرح القرآن : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ  
يَفْقَهُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> ، وكما فعل إبراهيم مع الذي حاجه في ربه. فترك الإصرار على  
الدليل الأول حين لم يفهمه الخصم، وعمد إلى دليل آخر أقرب إلى فهمه  
﴿ قَبِهْتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ <sup>(٢)</sup> . فهذه جملة الجواب <sup>(٣)</sup> .

وأخيرا ناظر الفراهي بين أسلوب القسم وبعض الأساليب الأخرى التي نص  
النحويون والبلاغيون على خروجها عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى، فقال :  
يدل القسم على إظهار التأكيد والجد في القول، كما ترى في قول المرسلين من  
النصارى حيث جاء في القرآن : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ \* وَمَا عَلَيْنَا

(١) سورة الأنعام ٦٥ .

(٢) سورة البقرة ٢٥٨ .

(٣) إمعان ٤٨ .

إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ»<sup>(١)</sup> أو كما ترى في قوله : «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ \* وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ \* إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ \* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ»<sup>(٢)</sup> وقد صرح في المثالين المذكورين ، وذلك لخصوصية في أسلوب القسم لا لأن فيه تعظيماً ، كما ترى تأكيد الإثبات والإنكار بأسلوب الاستفهام أو التعجب في أكثر الألسنة ، أو تأكيد التعجب بالنداء كقولك : يا للماء ، و :

\* يا لِقَوْمِي لِلشَّبَابِ الْمُبَكَّرِ<sup>(٣)</sup> \*

ونظرت د. عائشة عبد الرحمن في الواو المبدوءة بما آيات الأقسام، في ضوء ما تعرف من أن الأصل فيها أن تأتي في درج الكلام للربط والعطف، فإذا جاءت للقسم فإن لها الصدارة في مقام التوثيق لما يسبق إنكاره أو الإقرار والشهادة .

فوجدت أن ليس في القرآن " والله " قسماً غير قسم المشركين في آيتي الأنعام، ووجدت القسم بـ " رب " في أربع آيات . والواو في كل هذه الآيات في درج الكلام ، وليست في مستهل السورة أو الآية، فإذا وقعت في أول الآية كانت مسبوقة بالفاء أو فلا ، والقسم فيها على وجهه من التأكيد والتقرير .

ووجدت المفسرين والبلاغيين قنعوا بأنها لإعظام ما تلاها، وحملوا الآيات من التأويلات الفلسفية والإشارية ما لا تصور أن هذه الواو يمكن أن تحمله من قريب أو بعيد .

من هنا كان وقوفها أمام هذه الظاهرة الأسلوبية في البيان القرآني ، لعلها تجتلي من سرها البياني، ما تضيفه إلى فكرة الإعظام التي سيطرت وحدها على كل من قرأت لهم من المفسرين والبلاغيين .

(١) سورة يس ١٦ — ٧ .

(٢) سورة الطارق ١١ — ٤ .

(٣) إمعان ٤٨ — ٩ . وانظر فصل البلاغة والإعجاز .

والذى اطمأنت إليه — بعد طول التدبر لسياق الواو في الآيات المستهله  
بها — هو أن هذه الواو قد خرجت عن أصل معناها اللغوى الأول في القسم  
للتعظيم، إلى معنى بلاغى، هو اللّف — بإثارة بالغة — إلى حسّيات مدركة لا  
تحتمل أن تكون موضع جدل ومماراة، توطئة إيضاحية لبيان معنويات يُمارى فيها،  
أو تقرير غيبيات لا تقع في نطاق الحسيات والمدركات. وهذا البيان للمعنى  
بالحسى، هو مدار استعمال البيان القرآنى، وهو الذى يمكن أن يعرض على الآيات  
المستهله بواو القسم، فتقبله دون تكلف في التأويل أو اعتساف الملحظ<sup>(١)</sup>.

وقوة اللفت في مثل هذا الأسلوب تأتي من العدول بالواو عن موضعها  
المألوف في درج الكلام، فثير أقصى التنبه.

ولعل السلف الصالح من المفسرين، ما فاقم هذا الملحظ البياني إلا لأن  
علماء البلاغة قد عرفوا خروج الخبر والاستفهام والأمر والنهى عن معانيها الأولى  
في أصل اللغة، إلى معان بلاغية نصوا عليها في كتب البلاغة المدرسية. ثم لم  
يشيروا إلى خروج القسم عن معناه الأول. فكان ما كان من اعتساف التأويل  
للآيات المبدوءة بواو القسم، لتظل كما أراد لها علماء البلاغة، على أصل معناها  
اللغوى، لا تخرج عنه إلى معنى بلاغى<sup>(٢)</sup>.

وانفرد بعض العلماء بذكر علل للأقسام لم تتكرر عند غيرهم من مراجعى  
مثال ذلك قول الطوسى: إن الله أقسم بهذه الأشياء لما فيها من اللطف<sup>(٣)</sup>، وقول

(١) الإعجاز ٢٢٦ — ٣٠.

(٢) الإعجاز ٢٣٣ — ٤.

(٣) البيان ٣٧٧ / ٩.

الطبرسى : لبركتها<sup>(١)</sup> ، وقول الرازى : لإيجاب الشكر على الناس<sup>(٢)</sup> ، وقول أبى حيان : التبيه على كونها قوام الوجود<sup>(٣)</sup> ، وقول الآلوسى : لإرهاب المنكرين<sup>(٤)</sup> ، وقول محمد عبده : لتقرير وجودها فى عقل من ينكرها ، أو لقلب الاعتقاد فى قلب من أضله الوهم أو خانه الفهم ، أو لتقريع من خصها بالعبادة<sup>(٥)</sup> ، وقول طنطاوى جوهرى : لبحث على العمل الصالح<sup>(٦)</sup> ، وقول د . أحمد أحمد بدوى : لإثارة العاطفة الوطنية التى تدفع إلى تقديس الوطن<sup>(٧)</sup> ، وقول د . محمد بكر إسماعيل : للتحذير من شرها<sup>(٨)</sup> . والحق إنه لا يمكن حصر ما قالوا من علل حصرها شاملا ، وبخاصة إذا تبعنا الأقسام واحدا بعد واحد .

وتكشف هذه الجولة أننا يمكن أن نجمع كل الأقوال التى قيلت فى تعليل إقسام القرآن بالأشياء فى علتين عامتين : العظمة والدلالة . ونذهب إلى أن العظمة تجمع الشرف والعزة والفضل والنفع وما إليها . ونضع تحت اسم الدلالة كل ما أشارت إليه من وجود الله الخالق لهذه الأشياء وصفاته .

(١) مجمع ٢٧ / ٢٦ .

(٢) مفاتيح ٣١ / ١٤٧ ، ١٧١ .

(٣) البحر ٨ / ٣٧٨ .

(٤) روح : ٣٠ / ١١٠ .

(٥) جزء عم ١٣ ، ٣٤ ، ١٢٣ . وانظر موسى ١٢٥ - ٦ .

(٦) بلاغة ٤٦ .

(٧) من بلاغة ١٧٢ .

(٨) دراسات ٣٧٠ .

وتكشف أيضا أن القدماء لم يجدوا أدنى تعارض بين العلتين العامتين، اللتين ذكرتهما. ولذلك جمع بعضهم بينهما في القسم الواحد، ورد بعضهم عظمة بعض الأشياء إلى كونها دالة على إحدى صفات الخالق .

ويؤدى بنا هذا إلى أن نعرف أن الفراهى أخطأ حين فرق بين العلتين، وخلط بين التعظيم والتقديس، وظن أن الرازى انفرد بالقول بالتعظيم . وكال له — من أجل ذلك — التهم دون وجه حق ، لأن الرازى قال بالعتين كليهما .

وتكشف أن الفراهى ود. عائشة عبد الرحمن سارا فى طريق واحد، وأن العلميين والقائلين بالإعجاز العلمى من المحدثين عنوا بعللة الدلالة على حساب علة العظمة .

## ٣ . تقدير مضاف محذوف

نقل الطبري أن معنى القسم في أمثال سورتي الطور والتين على مذهب مالك ابن أنس (٩٣ - ٧١٢/١٧٩ - ٧٩٥) : ورب الكتاب المسطور، وخالق التين والزيتون<sup>(١)</sup>.

ونقل الطوسي أن أبا علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣/٨٤٩ - ٩١٦) قال : القسم في كل ما ذكر في القرآن من المخلوقات، إنما هو قسم بربه<sup>(٢)</sup>.

ونسب الرازي هذا القول مرة إلى القاضي، أي عبد الجبار بن أحمد (٤١٥/١٠٢٥)<sup>(٣)</sup>، وأخرى إلى المتكلمين<sup>(٤)</sup>، وثالثة إلى جماعة من أهل الأصول<sup>(٥)</sup>. واعتل الجبائي بأن القسم لا يجوز إلا بالله<sup>(٦)</sup>.

(١) الجامع ٤١/١٠. وأتى به غير منسوب : الطوسي ٤٤١/٨، ٣٥٥/٩، ٣٧٧، ٤١٨، ١٨٣/١٠، ٢٢٣، ٢٥١، ٣١٢، ٣١٥، ٣٥٦. البغوي ٣٤/٧. الطبرسي ١١٧/٢٩، ٢٢٣، ٢٢/٣٠، ٩٩، ١٦٦، ٢٥١، ٣١٢، ٣١٥. ابن الجوزي ٤٥/٧، ٢٧/٨. الزركشي ٤١/٣. النيسابوري ٨٤/٣٠، ٩٨. معترك ٤٥١/١. الإتيقان ١٧٠/٢. الشوكاني ٣٧٤/٤، ٤٤٥/٥، ٤٥٥، ٤٩٥. المدخل ٥٠٣/١. العمري ٢٤٥.

(٢) التبيان ٥٠٧/٩، ١٠٨/١٠. الطبرسي ٤٨/٢٣، ٤٩/٢٩، ١٥٧/٣٠.

(٣) مفاتيح ١٥٠/٣١، ١٧١، ١٧٣.

(٤) مفاتيح ٩٩/٣١.

(٥) مفاتيح ١٧١/٣١.

(٦) الطوسي ١٠٨/١٠. الطبرسي ٤٨/٢٣. وانظر الرازي ٩٩/٣١.

وصرح — هو والقاضى — بأن الذى سوغ حذف المضاف كون حجج العقول دالة على المحذوف (١) .

واستدل القاضى على رأيه بما يلى :

\* لا يجوز أن يكون المراد من قوله ﴿ وَمَا بَنَاهَا ﴾ الله ، للأسباب التالية :

( ما ) لا تستعمل فى خالق السماء إلا على ضرب من المجاز .

لا يجوز منه — تعالى — أن يقدم قسمه بغيره — السماء — على قسمه بنفسه .

لا يكاد يذكر — تعالى — مع غيره على هذا الوجه .

لا بد إذن من التأويل ، وهو أن ( ما ) مع ما بعدها فى حكم المصدر ، فىكون

التقدير: وَالسَّمَاءِ وَبِنَائِهَا (٢) .

\* القسم — فى سورة الفجر — دال على المبالغة . ومعلوم أن المبالغة فى

القسم لا تحصل إلا فى القسم بالله (٣) .

وأتى بهذا الاستدلال فى صياغة أخرى — فى موضع آخر — مع نسبه إلى

أصحاب هذا القول ، دون تحديد ، فذكر أنهم احتجوا عليه بوجوه :

الأول : أنه ﷺ نهى عن الحلف بغير الله . فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير

الله ؟

الثانى : أن الحلف بالشيء تعظيم عظيم للمحلوف به . ومثل هذا التعظيم

لا يليق إلا بالله .

(١) الطبرسى ٤٨ / ٢٣ ، ٤٩ / ٢٩ ، ١١٧ ، ١٥٧ .

(٢) مفاتيح ٣١ / ١٧١ . وانظر النيسابورى ٩٨ / ٣٠ — ٩ .

(٣) مفاتيح ٣١ / ١٥٠ ، ١٧١ .

الثالث : أن هذا الذى ذكرناه تأكــد إذ صرح — تعالى به فى قوله :  
﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا \* وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا \* وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (١) .

ورد الطوسى على هذا الرأى بأنه ترك للظاهر من غير دليل، لأنه قد يجوز ذلك القسم على جهة التنبيه على ما فى الأشياء من العبرة والمنفعة. واستدل بقول الحسن البصرى الذى ينص أن لله أن يقسم بما شاء (٢) .

واعترض الزمخشرى على جعل ( ما ) فى الآيات مصدرية، لأن ذلك — فى رأيه — يؤدى إلى فساد النظم . ورأى أن الوجه أن تكون موصولة . وإنما أوثرت على ( مَنْ ) لإرادة معنى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء والقادر العظيم الذى بناها، ونفس والحكيم الباهر الذى سواها. وفى كلامهم — سبحان ما سخركن لنا (٣) .

وشرح الرازى فساد النظم الذى أشار إليه الزمخشرى فأعلن أنه يلزم من تأويل القاضى أن يكون المراد ( ورب السماء وربها ) وذلك كالتناقض (٤) .

ثم نظر فى قوله وقول الزمخشرى ، وتساءل :

إن الذى ذكره صاحب الكشف من أن ( ما ) هاهنا لو كانت مصدرية لكان عطف ( فألهمها ) عليه يوجب فساد النظم : حق .

(١) مفاتيح ٢٦ / ١٠٣ .

(٢) البيان ٩ / ٥٠٧ ، ١٠ / ٢٥١ . وأتى به غير منسوب : الطرسى ٣٠ / ٢٢ . وانظر الشوكانى ٤٥٥ / ٥ .

(٣) الكشف ٤ / ٧٥٩ . الرازى ٣١ / ١٧١ ، ١٧٣ . النيسابورى ٣٠ / ٩٨ . الآلوسى ١٨٢ / ٣٠ .

(٤) مفاتيح ٣١ / ١٧١ .

والذى ذكره القاضى من أنه لو كان هذا قسما بخالق السماء لما كان يجوز تأخيره عن ذكر الشمس ؛ هو إشكال جيد .

ثم قدم الحل بقوله : والذى يخطر ببالي فى الجواب عنه : إن أعظم المحسوسات هو الشمس . فذكرها — سبحانه — مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمتها . ثم ذكر ذاته المقدسة بعد ذلك ، ووصفها بصفات ثلاث ، وهى تدبيره للسماء والأرض والمركبات . ونبه على المركبات بذكر أشرفها ، وهى الشمس .

والغرض من هذا الترتيب هو أن يتوافق العقل والحس على عظمة جرم الشمس . ثم يحتج العقل الساذج بالشمس ، بل بجميع السماويات والأرضيات والمركبات ، على إثبات مُبدئ لها . فحينئذ يحظى العقل بإدراك جلال الله وعظمته ، على ما يليق به ، والحس لا ينازعه فيه . فكان ذلك كالطريق إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى يَفَاع عالم الربوبية وبيداء كبرياء الصمدية <sup>(١)</sup> .

وشرح النيسابورى الموقف الأخير من الرازى — دون أن يذكره — بأن الله أراد أن نتدرج من المحسوسات إلى المعقولات ، ومن المصنوعات إلى الصانع <sup>(٢)</sup> . وكان أدق من الرازى حين وصف ما يلزم عن تأويل القاضى بالتكـرار لا التناقض <sup>(٣)</sup> .

(١) مفاتيح ٣١ / ١٧٣ .

(٢) غرائب ٣٠ / ٩٩ .

(٣) غرائب ٣٠ / ٩٨ .

## ٤ . الأشياء التي أقسم الله بها

من البديهي أن المفسرين تصدوا لإبانة ما أقسم الله به في كل واحد من الأقسام حسب موقعه في المصحف . ولكنني — في هذا المقام — لن أعنى بهذه الحالات الفردية ، وإنما أعنى باحاولات التي اضطلع بها بعض العلماء لإبانة كل ما أقسم الله به أو مجموعة كبيرة منه في موضع واحد .

وأول ما أتعرض له تلك التي تتجلى في قول ابن أبي الإصبع : المفتحات بالقسام خمس عشرة سورة . وهي على خمسة أضرب :

- ضرب أقسم فيه سبحانه بالملائكة .
  - وضرب أقسم فيه بالأفلاك .
  - وضرب أقسم فيه بلوازم الأفلاك .
  - وضرب أقسم فيه بالعناصر .
  - وضرب أقسم فيه بالمولدات، أعنى الحيوانات والنباتات والجمادات .
- فالضرب المقسم فيه بالملائكة سورة واحدة ، وهي الصفات .  
والضرب المقسم فيه بالأفلاك سورتان ، وهما البروج ، والطارق .  
والضرب المقسم فيه بلوازم الأفلاك ست سور، وهي النجم ، والفجر ، والشمس ، والليل ، والضحى، والعصر .  
والضرب المقسم فيه بالهواء سورتان، وهما المرسلات ، والذاريات .  
والضرب الذي أقسم فيه بالتربة سورة واحدة، وهي الطور .
- والحكمة في ذكر هذين العنصرين الأخيرين أن جميع المولدات من العناصر لا تخرج عن لطيف وكثيف . فكثافة الكثيف من التراب، ولطافة اللطيف من الهواء .

فكان ذكر هذين العنصرين مستلزما ذكر كل لطيف وكثيف. فلأجل ذلك كان ذكرهما دون غيرهما مما تقتضيه البلاغة. وأيضا فإن طبيعة الهواء حارة رطبة، وطبيعة التراب باردة يابسة. والحرارة والرطوبة طبعُ الحياة، والبرد واليبس طبيعة الموت. فكان ذكر هذين العنصرين يتضمن ذكر الحياة والموت، اللذين لا يَعْرِى الموجود عن أحدهما. فتعين ذكرهما دون غيرهما.

والمقسم فيه بالمولدات على ثلاثة أضرب :

- ضرب أقسم سبحانه فيه بالجماد ، وهي سورة واحدة، وهي الطور.
- وضرب أقسم فيه بالنباتات في سورة واحدة أيضا ، وهي التين .
- وضرب أقسم فيه بالحيوان ، وهو صنفان :
- صنف أقسم فيه بالحيوان الناطق، وهو سورة واحدة، هي النازعات.

■ وصنف أقسم فيه بالحيوان البهيم ، وهو سورة واحدة أيضا، وهي العاديات <sup>(١)</sup>.

وذهب ابن القيم إلى أن القسم لا بد أن يكون بما يحسن فيه التوكيد كالأمور الغائبة والخفية. أما الأمور الظاهرة المشهورة — كالشمس والقمر والليل — فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها <sup>(٢)</sup>.

وحصر ما أقسم الله به في :

- نفسه الموصوفة بصفاته .
- وآياته المستلزمة لذاته وصفاته .

(١) الخواطر ٨٠ — ٢ .

(٢) التبيان ٤٦ / ١ . معترك ٤٥٣ / ١ . الإتيان ١٧١ / ٢ . قمحاوي ٢٦ / ٣ . وأتى به دون

نسبة: القطان ٣٠٤ . أمين ٢٤٤ . شحانة ٢٧٤ . العمري ٢٤٧ .

• وبعض المخلوقات (١).

وجاء الزركشى بقولين : قال في أولهما : أقسم الله بنفسه في سبعة مواضع :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢).

﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ (٣).

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤).

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرُهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ (٥).

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ (٦).

﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ (٧).

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (٨).

والباقى كله أقسم بمخلوقاته (٩).

وقال في الثانى : أقسم سبحانه بثلاثة أشياء :

(١) البيان ١/٤٥ . معترك ١/٤٥٣ . الإتيقان ٢/١٧١ . الفراهى ١٠، ١٢ . قمحاوى

٣/٢٥ . وأتى به دون نسبة : القطان ٣٠٢ . الآلوسى لعبد الحميد ٢٤٦ . أمين ٢٤٠ ،

العمرى ٢٤٦ . وانظر خليف ٩٦ - ٧ .

(٢) سورة النساء ٦٥ .

(٣) سورة يونس ٥٣ .

(٤) سورة الحجر ٩٢ .

(٥) سورة مريم ٦٨ .

(٦) سورة الذاريات ٢٣ .

(٧) سورة التغابن ٧ .

(٨) سورة المعارج ٤٠ .

(٩) البرهان ٣/٤٠ . وأتى به غير منسوب : معترك ١/٤٥٠ . الإتيقان ٢/١٧٠ . القطان ٣٠ .

القاضى ٨٤ . شحاتة ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ . قمحاوى ٣/٢٣ . الغمرى ٢٤٤ . رضا

١٦٦ . وانظر أمين ٢٤٠ .

أحدها : بذاته ، كقوله : ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (١) .

والثاني : بفعله ، كقوله : ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا \* وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا \*

وَتَنْفُسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (٢) . ويصلح هذا على اعتبار ( ما ) مصدرية .

والثالث : مفعوله ، نحو : ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (٣) .

وأفاض طنطاوى جوهرى كما أفاض ابن أبى الإصبع قبله . فقال : تراه — عز

شأنه — أقسم عشرين قصما بالأجرام العلوية وخواصها وأضوائها ومواقعها ، تراه

أقسم بالفجر ، والفلق — وهو الصبح — والشمس ، والضحى ، والنهار ، والعصر ،

والليل إذا يغشى — يغطى — المخلوقات كأنه ملاءة منشورة عليهم ، والليل إذ

يسرى — يسير — حول الكرة الأرضية تابعا للنهار ، والنهار يتبعه .

وأقسم بالليالى العشر ، فى أول كل شهر عربى ، لغلبة ظلامها على ضوئها .

وأقسم بالنجم إذا هوى ، تنبيها على مغارب النجوم وإيقاظا لها .

وأقسم بمواقع النجوم وأماكنها الواقعة فيها ودوائرها .

وقال : ﴿أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ أى محل الشروق والغروب .

وأقسم بالشفق ، وبالليل ، وبما وسق — أى جمع .

وأقسم بالقمر ، وبالسماء ذات البروج ، تنبيها لمعرفة ، لتعرف السنون

والشهور والأيام .

وأقسم بالسماء ووصفها بأنها ذات الحيك — أى طرق النجوم — والقمر إذا

اتسق — أى امتلأ بالنور .

(١) سورة الذاريات ٢٣ .

(٢) سورة الشمس ٥ — ٧ .

(٣) سورة النجم ١ . البرهان ٣/ ٤٢ . وأتى به غير منسوب : معترك ١/ ٤٥٢ . الإقسان ٢/ ١٧٠ .

القاضى ٨٦ . شحانة ٢٨٠ . المدخل ١/ ٥٠٤ . قمحاوى ٣/ ٢٤ . ونسبه للسيوطى : رضا ١٦٨ .

وأقسم بالسماء ، وبمن بناها .

وأقسم بالنازعات غرقا ، وهى النجوم التى ترمى شهباً عن دوائرها المشبهات بالقوس . فكأن النجم إنسان، والدائرة قوس ، والشهاب الساقط سهم. وذكر أنها ناشطات فى سيرها، مسرعات فيه، تتم دوراتها كالشمس فى سنة، والقمر فى شهر. فقال : ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا \* وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا \* فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ أى النجوم التى تسبق غيرها، وتتم دورتها سريعا ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ <sup>(١)</sup> وهى هذه النجوم ، لأنها بما يتم تدبير العالم .

ثم إنه أقسم بذكر أشياء أخرى مما تحت الفلك ، وأحاط بالكرة الأرضية : فأقسم بالرياح الذاريات ، وبالجبال ، فقال : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا \* فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ أى الرياح التى تحمل السحاب، وتذرو الأشياء . وأقسم بالأرض وما طحاها. فالأرض مفهومة، وطحوها دحيها وتسويتها وإتقانها.

وأقسم بالجبيل فقال : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾

وبالنبات فقال : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾

وبالبلد الذى خرج منه سيدنا محمد ﷺ فقال : ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾

وأقسم بالخييل فقال : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ أى الخيل التى تعدو وهى تضبح فى الجرى ضبحا .

وأقسم بكل من يُحِس ، وكل ما يُحَس ، فكأنه أقسم بكل محسوس وبكل ما يحس به .

وأقسم بالناطق والصامت فقال : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ <sup>(٢)</sup>

(١) سورة النازعات ٢ - ٥ .

(٢) سورة البروج ٣ .

وأقسم بيوم القيامة، ويوم الجزاء ، ويوم الميعاد، الذى سيجازى فيه الناس.

وأقسم بالكتب المسطرة المنثورة ، وهى ما يقرؤه الناس .

وأقسم بالبحر .

ثم عمم القسم بكل ما خلق فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ\* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

فكانه أقسم بكل شىء — إذ العالم قسمان : ما يُبصر ، وما لا يبصر.

وجاء بتعميم آخر ، فأقسم بالشفع والوتر. ولا ريب أن العدد إما شفع

أو وتر .

وهذه نحو عشرين قسما . أحاط بما بالأرض والهواء والسحاب والجبال

والنبات والحيوان .

وخصص الإنسان منه فقال : ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾<sup>(٢)</sup> أى أقسم بآدم وأولاده

وغيرهم . وخصص ذلك بعد فقال : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾<sup>(٣)</sup> فأقسم بالنفوس

وتسويتها.

فتراه أقسم بأسماء العالم كلها . وأخيرا أقسم بكل ما خلق مما نشاهد وما لا

نشاهد.

تفيد هذه الأقسام بالعلويات — وهى تبلغ العشرين — وبالسفليات — وهى

تبلغ العشرين أيضا — أن الله أمر عباده، وأوجب عليهم النظر فى العلويات

والسفليات بالتساوى، وفى الحساب والهندسة . . . . وجميع العلوم<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الحاقة ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة البلد ٣ .

(٣) سورة الشمس ٧ .

(٤) التاج ٩٧ — ١٠٠ .

وذكر د. أحمد أحمد بدوى أن القرآن أقسم بالرب، وحياء المخاطب (الرسول)، ومصنوعات الله ، كالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض والنفس<sup>(١)</sup>.

وقال د. عبد الله محمود شحاتة : أقسم القرآن بكثير من مخلوقات الله ، وبالملائكة، وبالنبى ، وبمظاهر الكون كالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق وبالعصر والضحى والشمس، والبلد ، ووالد وما ولد، وبالفجر والتين<sup>(٢)</sup>.  
وأجمل د. يوسف خليف الأمر فى قوله : جرى القسم فى القرآن على خمسة أساليب .

فإنه يقسم بذاته الموصوفة بصفاته، مثل :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾<sup>(٣)</sup>.

ويقسم بآياته المستلزمة لذاته .

ويقسم بنيه .

ويقسم ببعض مخلوقاته .

ويقسم بالقرآن<sup>(٤)</sup> .

وخالف — محقا — من سبقوه، فذكر أن قسمه بذاته ورد فى عشر آيات، منها آيتان مديتان، والثمانى الباقيات مكية. وأضاف إلى ما ذكره الزركشى:

(١) من بلاغة ١٧٠ — ١ .

(٢) علوم ٢٧٨ .

(٣) سورة النساء ٦٥ .

(٤) دراسات ٩٦ .

- ﴿ تَا لَّهُ لَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتُرُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> .  
 ﴿ تَا لَّهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
 ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَكُمُ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال : ورد القسم بالقرآن في خمسة مواضع ، كلها مسبوقة بالحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور :

- ﴿ يس \* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ .  
 ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ .  
 ﴿ حم \* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ <sup>(٤)</sup> .  
 ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ .

أما أكثر أقسام القرآن انتشارا فهو القسم بآياته ومخلوقاته، وهي التي تميّز أسلوب القسم فيه بهذا الطابع الفريد به <sup>(٥)</sup> .

واقصر د ، محمد بكر إسماعيل على أن الله أقسم بذاته في ستة مواضع فقط <sup>(٦)</sup> .  
 وتبين هذه الجولة أن أوفى الإحصاءات ما جاء به ابن أبي الإصبع وطنطاوى جوهرى، وأدقها ما جاء به د ، يوسف خليف مع حرصه على إيانة المكي من المدنى من الآيات، وأوجزها مع الوفاء ما جاء به ابن القيم . أما غيرهم فلم يحاولوا أن يكون الحصر شاملا .

(١) سورة النحل ٥٦ .

(٢) سورة النحل ٦٣ .

(٣) سورة سبأ ٣ .

(٤) سورتا الزخرف والدخان ١ ، ٢ .

(٥) دراسات ٩٦ - ٩ .

(٦) دراسات ٣٦٤ .

## ٥ - الحسية فى الأقسام المكية والمدنية

وكان من العلماء من تأثر بأقوال المستشرقين ، فوازن بين الأقسام فى العهد المكى والأقسام فى العهد المدنى. فزعم أن القسم المكى يكثر فيه القسم بالضحى والشمس . . . إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخرا وانحطاطا، وأن القسم المدنى خلا من القسم بهذه المحسوسات.

فتصدى له د . محمد محمد أبو شهبه، ورماه بأن غرضه — من هذا القول — الزعم بأن القرآن متأثر بالبيئة ، ليصل إلى التشكيك فيه . وأعلن أن هذا الكلام مردود بما يأتى :

١ - دعوى أن البيئة المكية ساذجة جاهلة لا ترقى إلى ما وراء الحس ، دعوى لم يقم عليها دليل ، ويكذبها الواقع والتاريخ الصحيح. فقد كان أهل مكة أوفى ذوقا، وأرهف شعورا ، وأذكى عقولا من أهل المدينة.

٢ - إن الله أقسم — فى القسم المكى — بالمعقول كما أقسم بالمحسوسات . فمن ذلك قسمه بالقرآن والملائكة والنفس الناطقة . . .

٣ - إن القسم بهذه الأشياء لا لكونها محسوسة، وإنما هو تنبيه إلى ما تشتمل عليه من إحكام فى الخلق والصنعة، وما تنطوى عليه من أسرار وعجائب، ونعم وآلاء<sup>(١)</sup>.

وليست الشيخ اكتفى بالأمرين الأخيرين ، ولم يتعرض للموازنة بين مكة والمدينة، لأن الكثيرين لا يوافقونه على ما قال .

(١) المدخل ٢٤٧ .